فقال لها ضعي خدي على التراب ففعلت فبكى حتى أذوق طعم التراب الدنيا وأتذلل
لسيدي ومولاي عسى يرحمني وينجيني من نار لظى قالت أمه فتقدمت إليه وقد
ألصق خده بالتراب والدموع تجري من عينيه وهو يقول بصوت ضعيف ماذا أنا
تبادي بصوت ضعيف هذا جزاء من ظلم وعصى هذا جزاء من أخطأ وأساء هذا جزاء
من لم يخف سطوة المولى هذا جزاء من لم يراقب العلي الأعلى قالت ثم تحول إلى القبلة
وقال لبيك لبيك لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ومات
في مكانه قال فرأته أمه في المنام كأن وجهه مثل قمر تجلى من سحاب
فقالت له يا بني ما فعل بك مولاك فقال لها رحمني وقربني من محمد
صلى الله عليه وسلم فقالت له يا بني ما الذي سمعته منك تقول عند موتك
فقال لها يا أماه هتف بي هاتف وقال لي يا عمران أجب داعي الله فأجبته ولبيته
عز وجل

الفصل التاسع

إخواني السفر مكتوب علينا
فما لنا نطلب الإقامة في دار ليست لنا إنما السفر منازل والشهور
مراحل والأيام أميال والساعات فراسخ والأنفاس خطوات والمعاصي قطاع والربح الجنة و
الخسران النار خلقنا لنتقلب في ستة أسفار إلى أن يستقر بنا القرار
فالسفر الأول سفر السلالة من الطين والثاني من الصلب إلى الرحم والثالث
من الرحم إلى ظهر الأرض والرابع من ظهر الأرض إلى القبر والخامس من القبر
إلى موضع العرض والسادس من موقف العرض إلى دار الإقامة إما إلى الجنة
وإما إلى النار وقد قطعنا نصف الطريق وبقي أصعبه فيا من يضيع أكثر
ويضيع جل الدهر في غفلته تستريح كثر التسويف والتعويل على
نسي ما سلف من الفعل الوبيل لو حققت النية لتحمل عليك تقدم
كريك بالقي إياك والدنيا فإن حبل الدنيا منبوت وأقنع منها
باليسير فما تعرف الموت ما أحسن ما كنت فيه تعرف قال عبد الله
ابن المبارك قدمت مكة فإذا الناس قد قحطوا من المطر وهم يستسقون
في المسجد الحرام وكنت في الناس مما يلي باب بني شيبة إذ أقبل غلام أسود
عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فصار

في موضع خفي إلى جانبي فسمعته يقول إلهي أخلقت الوجوه كثرة الذنوب
ومساوئ العيوب وقد منعتنا غيث السماء لتؤدب الخليقة بذلك فأ
سألك يا حليما ذا الأناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل اسقهم الساعة
الساعة قال ابن المبارك فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى استوت بالغمام
وأقبلت فطرات الركام فهطل كأفواه القرب وجلس مكانه يسبح وأخذت
في البكاء إذ قام فاتبعته حتى عرفت موضعه فجئت إلى الفضيل بن عياض فقال
لي ما لي أراك كئيبا فقلت له سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا قال وما ذاك
فقصصت عليه القصة فصاح وسقط وقال ويحك يا ابن المبارك خذ بي
إليه قلت قد ضاق الوقت وسأبحث عن شأنه فلما كان من الغد صليت الغداة
وخرجت أريد الموضع فإذا شيخ على الباب قد بسط له وهو جالس فلما
رآني قال مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن ما حاجتك فقلت له احتجت
إلى غلام فقال نعم عندي عدة فاختر أيهم شئت فصاح يا غلام فخرج
غلام جلد فقال هذا محمود العاقبة أرضاه لك فقلت ليس هذا حاجتي
فما زال يخرج واحدا بعد واحد حتى أخرج إلي الغلام فلما بصرت به بدرت
عيناي فقال هذا فقلت نعم فقال ليس إلى بيعه سبيل قلت ولم قال تبركت
بموضعه في هذه الدار وذلك أنه لم تصبني مصيبة منذ كان عندي
في هذه الدار فقلت ومن أين طعامه فقال يكسب من فتل الشريط نصف
دانق أو أقل أو أكثر فهو قوته فإن باعه في يومه وإلا طوى ذلك اليوم وأخبرني
الغلمان عنه أنه لا ينام هذا الليل الطويل ولا يختلط بأحد منهم
مهتم بنفسه وقد أحبه قلبي فقلت له أنصرف إلى سفيان الثوري
وفضيل بن عياض بغير قضاء حاجة فقال إن ممشاك عندي كبير خذه
بما شئت قال فاشتريته وسرت نحو دار فضيل بن عياض فمشيت
ساعة فقال لي يا مولاي فقلت لبيك فقال لا تقل لبيك فإن العبد أولى
أن يلبي من المولى فقلت ما حاجتك يا حبيبي قال أنا ضعيف البدن لا أطيق
الخدمة وقد كان لك في غيري سعة قد أخرج إليك من هو أجلد مني

Copyright © King Saud University